الشهيد الثاني وتجربته الفريدة

الشيخ د. جعفر المهاجر

هو ذا رجل لحظة من التاريخ ، لم تتكرر ، ولم ينسج على منوالها أحد .
ويبدو اليوم أن التذكير بها ، لا أقلّ من التذكير ، ضرورة . عسى أن توقظ
فينا حسّ الجماعة وروح الفريق . في وقت يبدو أن أشياء كثيرة ، ممّا
يدخل في دائرة هذه الأخطار المُحدقة ، يتوقّف التعاطي الناجح والمُنجي
معها على أن نقف منها صفّاً واحداً ، أمة - جسداً ، لها روح واحدة موحّدة ،
ولها حوافز متشابهة . كما أنها تملك حسّاً حياً بالمستقبل .

(١)

إنه زين الدين بن علي الجُباعي ، نسبةً إلى بلدة " جُباع " من
" جبل عامل " (٩١١ - ٩٦٥ هـ / ١٥٠٥ - ١٥٥٨ م) ، لكنه أكثر شهرةً
بلقب " الشهيد الثاني " ، الذي اكتسبه بكامل الجدارة والإستحقاق كفاء شهادته
النضاليّة المُدوية . وسنذكره فيما يلي بلقبه .

والشهاد الثاني رجل من طراز فريد : فقيه مُتمكّن ، وعالم موسوعي ،
ومُصنّف غزير القلم . لكن وصف " الفقيه " ، إذ يُطلق عليه ، يعني معنى
آخر غير ما نألفه في الآلاف الذين نعرفهم من الفقهاء في زمانه وبعده وإلى حدّ ما
من قبله . ذلك أنه كان مُتمكناً من فقه ومعارف المذاهب الإسلاميّة كلها .
وسنرى أنه عمل على بناء مجتمع إسلامي على صورته . تلتقي فيه المذاهب
الإسلاميّة لقاءً مبنياً على التعارف والمعرفة ، في مقابل التناكر والإنكار . أي
أنه عمل على إعادة مفهوم المذاهب إلى صورته الأصليّة التي تركها أئمتها . قبل
أن تتحوّل ، من ضمن خطة سلطويّة مُحكمة ، إلى كيانات مُغلقة متنافرة .

(٢)

نهل الشهيد العلم ، دارساً ومُتحملاً من كل مراكزه في المنطقة الشاميّة
ومن " مصر " . من " جبل عامل " و " دمشق " و " القدس " و
" الخليل " و " القاهرة " . وقائمة شيوخه ومقرّاه عليهم في هاتيك المراكز

تغطي أعرف علماء عصره وكل العلوم المتداولة تقريباً . وما كان ذلك منه مجرد شوق علمي ، وإن يكن ذلك بنفسه أمراً يستحق غاية التقدير ، لكنه كان بالإضافة إلى ذلك يعمل وفق منهج آمن به وسعى إليه سعياً . بل نقول إنه أوقف عليه عمره وقضى في سبيله راضياً .

آمن الشهيد بأن قضية المذاهب هي قضية فضاء فكري مُتصل ، وليست قضية كيانات منفصلة . وآمن بالتالي أنه لا يصحّ من الفقيه أن يُفتي في مسألة إلا بعد الإطلاع على كافة الآراء والاجتهادات فيها لدى جميع المذاهب . وهذه إجمالاً قاعدة منهجية مُسلمة عند الجميع . لكن بالإضافة الأساسية التي اتانا بها هو أنه عمّمها وأخرجها من حدود المذاهب . في حين أن الفقهاء المذهبيين حصروها في حدود المذهب . ومن الغني عن البيان أنه بمنهجيته الجديدة عكس تأثير القاعدة باتجاه فرض الإنفتاح والإعتراف والتعارف ، بعد أن كانت بصفتها التقليدية سبباً من أسباب الإنغلاق والإنكار والتناكر .

(٣)

لم يقف الشهيد في أعماله عند الحدود النظرية ، التي بيّنها بأوضح بيان في نصوص صريحة ومناقشات ثابتة . لكنه عمل أيضاً على تطبيقها عملياً . وتلك قصة تستحق أن تُروى . لما فيها من عظمة وإبداع وخلوص قصد .

في السنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م زار " إستانبول " عاصمة الدولة العثمانية حيث قضى عدّة أشهر . وفي نهاية الزيارة قُدّمت له براءة بإمامة الجامع الكبير في " بعلبك " والتدريس في " المدرسة الأمينية " المُلاصقة للجامع . بعدها استقرّ في " بعلبك " زهاء السنتين ، يُؤمّ المصلّين ويُدرّس ويُفتي في المذاهب كلها . أي أنه كان يُدرّس طلابه ويُفتي مَنْ يستفتيه على مُقتضى مذهبه . وقد وصف هو نفسه في السيرة الذاتية التي كتبها بقلمه أيامه في " بعلبك " فقال :

" ثم أقمنا ببعلبك ، ودرّسنا فيها مدّة على المذاهب الخمسة ، وكثير من الفنون . وصاحبنا أهلها ، على اختلاف آرائهم ، أحسن صُحبة ، وعاشرناهم أحسن عشرة . وكانت أياماً ميمونة وأوقاتاً بهجة ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها "

والحقيقة أن ليس " أصحابنا " ، يعني زملاءه الفقهاء ، هم وحدهم الذين لم يروا مثل تلك الأيام • بل نقول تلك أيام لم تتكرّر منذ أن استقرّت المذاهب على مواقعها كلاماً وفقهاً وأوطاناً • بدا فيها وكأنّ الناس على اختلاف مذاهبهم قد عادوا بعبور إلى رحابة الآسلا م • وأنّ المسألة المذهبيّة قد استعادت صفتها الأصليّة الفكريّة وتحرّرت ممّا انضاف أو أُضيف إليها •

(٤)

كل شيء يدلّ على أن السلطنة العثمانيّة لم تكن راضية عن مسلك الشهيد • لكننا نراها امتنعت عن إتخاذ إجراء علني بحقه نظراً لإقبال الناس عليه • ولذلك رأيناه يغادر المدينة فجأة ، على الرغم من النجاح الكبير الذي أصابه فيها • والذي كان في الحقيقة أكبر بكثير من نجاح شخصي • ولم يقلّ هو في مذكراته لماذا فعل ذلك • وإنّ يكُن قد أشار إشارة غير خفيّة إلى أنه أمضى أيامه الأخيرة في " بعلبك " في قلق وحيرة واضطراب • وما من شك إطلاقاً في أنه حين غادرها لم يكن في خيرة من أمره • ومن المؤكّد أن سلطة كُليّة كالسلطنة العثمانية لن تُعدم وسيلة تُلجئه إلى التخلّي عن عمله الكبير • بدليل أنها بعد ذلك طارده مطاردة عنيدة طالّت زهاء العشر سنوات • وفي النهاية قبضت عليه في " المسجد الحرام " أثناء الطواف وساقته إلى " إستامبول " حيث أوردته مورد الهلاك • وهكذا وُضعت نقطة الختام على تجربته الفريدة بهذه الطريقة العنيفة والغبيّة •

ولكم تمنينا وتمنّى معنا عارفون مخلصون أن يُطلق اسم هذا الرجل الكبير على المسجد الذي شهد تجربته الفريدة ، بعد أن أُعيد بناءه منذ ثلاث سنوات ، وأُعيد إلى عظمته التاريخيّة • وما من شك أن خطوة كهذه كانت خير تعبير عن روح المدينة التي رعت تجربته العظيمة •